

كلمة رئيس المركز الدكتور شريف كناعنة في مؤتمر ابن خلدون*

الأخوة والأخوات،

السلام عليكم

قد يكون من المفروض بكلمتي كرئيس المركز الذي أشرف على تنظيم هذا المؤتمر أن تقتصر على الترحيب والمجاملات والرسميات، ولكن أرى أن دوري كصاحب فكرة عقد المؤتمر مئى أن أفسر وأبرر الحاجة لعقد مثل هذا المؤتمر وهذا يتطلب مني الدخول إلى صلب الموضوع. مما سيسمح لي بإعادة طرح رسالة طالما ناديت بها وسأستمر بالدعوة إليها.

قد يرى البعض أن عقد مؤتمر لتخليد ذكرى عالمٍ توفى قبل ٦٠٠ عام تحت الظروف القاسية التي نمر بها من احتلال واغتصاب للوطن والإرادة ومن تفرق وتصارع يمزق المجتمع، هو من الكماليات التي نحن بغنى عنها، أو من قبيل دفن الرأس في الرمل لتجاهل المصاعب، أو كما قال لي أحدهم بعد أحداث سجن أريحا: مثل اللي برش ع الموت سكر!

قد أكون مثاليًا في تفكيري وتوجهاتي، ولكنني أرى أن مثل هذا المؤتمر هو من الضروريات الملحة في مثل هذا الوقت العصيب بالذات.

دعوني أوضح ما أقول:

إن الوضع العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص لم يصل الحضيض بعد. إننا أمام قوة تحاول اقتلاعنا أو إبادتنا وليس مجرد إخضاعنا، نحن أمام حركة لم تتغير أهدافها منذ أكثر من قرن يمكن تلخيصها بـ "أرض بدون شعب، لشعب بدون أرض" وهذا الخطة تقارب مرحلة النجاح الكامل ولا منطلق في أن نتوقع توقف مدها في اللحظة التي هي في أوج نجاحها وازدهارها.

ليس هذا فقط بل أن هذه الحركة هي جزء من مدّ غربي نشأ في القرنين السابع والثامن عشر مبنيًا على فكرة جهنمية يمكن أن نسميها "الداروينية الاجتماعية" وهي فكرة ترجمت: "تنازع البقاء وبقاء الأصلح" من المستوى البيولوجي لأفراد النوع الواحد إلى مستوى الأعراق والشعوب والأمم والحضارات. وبدأ تطبيقها مع ظهور نظام الدولة القومية في أوروبا. وفي إطار صراع الدول القومية العرقية، ظهرت الإيديولوجيات المتناحرة من نازية وفاشية وشيوعية ورأس مالية، وتصارعت تلك الأيديولوجيات فيما بينها في أوروبا ولكنها اتفقت جميعها على أن الأوروبي الأبيض هو الأحق والأوحد والأصلح للبقاء وبذلك يحق له إبادة الشعوب غير الأوروبية، وهذا ما حدث في الأمريكيتين وأستراليا وإفريقيا وجنوب شرق آسيا وجزر المحيط الباسيفيكي، فأبيدت فئات الملايين من السكان الأصليين.

الصهيونية تنتمي إلى نفس الجذور، وهي تنتمي إلى نفس الفكر العنصري الاستعلائي الأوروبي نتيجة تماهي بعض يهود أوروبا مع الأعراق والحضارة الأوروبية، هذا مع العلم أن جذور الحضارة الأوروبية تعود جزئيًا على الأقل إلى الفلسفة العرقية الاستعلائية التي أنتجت فكرة "شعب الله المختار" في كتاب "العهد القديم" مما جعل المستعمرين الأوروبيين يدعون أنهم إسرائيليون جدد وأن المستعمرات الجديدة هي "أرض الميعاد"، وعندما تركت الصهيونية الساحة الأوروبية للشعوب الأوروبية من أريّة وأنجلو سكسونية وسلافية واتجهت شرقًا نحو إبادة شعب غير أوروبي والاستيلاء على أرضه والاستيطان فيها باركها الأوروبيون كما باركوا من قبلها السكان البيض في أماكن أخرى كما ذكرنا، سابقًا وما زالت إسرائيل تعرف نفسها بأنها جزء من الحضارة الأوروبية الغربية بينما يقبل الأوروبيون ذلك التعريف ضمن ما يعرف بالحضارة "اليهودية - المسيحية" Indio Christian Tradition -.

فدبح الفلسطينين الذي يجري الآن لا يختلف ولا يبتعد عن ذبح الهنود في أمريكا أو ذبح السود في جنوب إفريقيا، وقد أشار لي هذه الحقيقة عدد من الإسرائيليين ومن ضمنهم المؤرخ الصهيوني العنصري بني موريس الذي ذكر أكثر من مرة أنه كان على إسرائيل في ٤٨ أن يفعلوا بالفلسطينيين ما فعله المستوطنون البيض في أمريكا بالهنود الحمر.

ولذلك فإن من يعتقد منا أن الصهيونية، مجسدة برأس حربتها، إسرائيل سوف تسمح للفلسطينيين بإقامة دولة مهما صغرت فهو مخطئ، فالمطلوب أرض بدون شعب، ومن يعتقد أن إسرائيل تسعى إلى سلام مع الفلسطينيين فهو خاطئ إذا أن المطلوب هو أن لا يكون هناك فلسطينيون في الوجود، إن من يعتقد أن الصهيونية تريد سلاماً

* نشر في العدد ٤٤، صيف ٢٠٠٦.

مع الفلسطينيين لهو كمن يعتقد أن البيض ذهبوا إلى أمريكا ليحصلوا على سلام مع الهنود الحمر. إن من يعتقد أن الأمور سوف تتحسن بالنسبة للفلسطينيين فإنما هو يتوقع أن مشروعاً بدأ قبل أكثر من مائة سنة سيتوقف الآن ويترجع عن أهدافه بينما هو الآن في أوج قوته ونجاحه وعلى وشك إنجاز أهدافه، وهذا توقع غير منطقي وغير عقلائي.

المنطق يقول والأحداث على الأرض تدعم القول بأن الصهيونية على وشك الانقراض الأخير على الفلسطينيين المتواجدين على أرض فلسطين التاريخية وسوف تضعهم في عدد من المعتقلات الكبيرة (التي قد يطلق على مجموعها اسم "دولة فلسطين") ثم تباشر بالتخلص منهم عن طريق الترحيل أو المذابح الجماعية أو الاثننتين معاً.

هذا طبعاً ينطبق على الفلسطينيين في الضفة والقطاع.

لكن سكان الضفة والقطاع لا يكونون المجتمع الفلسطيني أو الشعب الفلسطيني أو "العصبية" الفلسطينية. الخطر على الفلسطينيين اليوم لا يأتي من خسارة ما تبقى بأيدي الفلسطينيين من أرض تساوي ما لا يزيد عن ١٠ في المائة من أرض فلسطين التاريخية، فالأرض تبقى في مكانها ولا تختفي وإنما الناس هم الذين يتبدلون. لا يأتي الخطر الأساسي على الشعب الفلسطيني من المذابح التي تؤدي بحياة عشرات أو مئات أو آلاف الفلسطينيين: إذ أن في العالم اليوم ما يقدر بحوالي تسعة ملايين فلسطيني وليس من السهل القضاء عليهم جسدياً.

الخطر الذي يهدد الفلسطينيين اليوم، كما أراه، يكمن في انحلال وتفكك "الهوية" الفلسطينية، في تفسخ وذوبان ذلك الشعور بالتكاتف والتماسك الجماعي والوعي الجماعي الذي أسماه ابن خلدون "بالعصبية" والتي وإن اعتمدت على المستويات الضيقة على علاقة الدم فإنها على المستوى السياسي والروحي الأوسع تعتمد على التماهي والتواصل والاشتراف في التاريخ والتجارب والتراث والرموز.

الخطر على هذه الهوية أو العصبية المشتركة أصلاً بين الفلسطينيين يأتي من التشرذم والتشتت الجغرافي ومن التعرض لظروف وضغوط حياتية واجتماعية وسياسية مختلفة حسب أماكن إقامتهم، مما قد يؤدي إلى ضعف ولأهم الفلسطيني والانصياع إلى ما تتطلبه بيئاتهم المحلية وضرورات حياتهم الفردية من ولايات جديدة.

هناك مثل شعبي يقول "ما بتروح دينة ووراها مطالب"، "الدينية" هي وطن فلسطيني مشترك "والمطالب" هو الشعب الفلسطيني ككل، كجسم اعتباري واحد، قضيتنا ليست قضية أفراد يطالبون بتعويضات عن خسائرهم الفردية. إذ الخطر اليوم هو من انهيار "العصبية" الفلسطينية، من تفسخ الهوية الجماعية، الكيان الجمعي، إذا حدث ذلك فسوف تختفي "المطالب" وتختفي "الدينية" وهما الآن ليس مجموع هموم من الأفراد وإنما هم الشعب الفلسطيني كوحدة، كجسم واحد. ولكن هذا الجسم ممزق جسدياً وبيولوجياً والمطلوب الحفاظ عليه كوحدة معنوية وروحية، كوحدة وعي مشترك، "هوية" فلسطينية مشتركة و متماسكة.

السؤال الأكبر لدى الفلسطينيين اليوم ليس إقامة دولة مسخ على شراذم من وطن، وليس كيف نعيد إلى تلك الدولة المسخ بضع عشرات الآلاف من اللاجئين، السؤال هو: كيف نحافظ على "العصبية" "الهوية" الفلسطينية؟

الحفاظ على "الهوية" يتطلب منا فهم مقومات "الهوية"، أية هوية. حسب فهمي للموضوع فإن للهوية الجماعية لأي شعب أو جماعة نوعين من المقومات، يمكن أن نسميها مقومات "أفقية" وأخرى "عمودية"، فإذا شبهنا الشعب الفلسطيني بشجرة، (ونحن كثيراً ما نستعمل شجرة الزيتون كرمز للشعب الفلسطيني)، فالتشبيه الذي أريد أن أطرحه هو شجرة أغصانها خضراء يانعة وجذورها عميقة في الأرض، تأتي عاصفة عاتية، هذه العاصفة تعمل شيئاً من اثنين أو الشئين معاً. إما أن تكسر الأغصان أو تجتث الشجرة من الجذور. إذا تكسرت الأغصان وبقيت الجذور عميقة في الأرض فإن هذه الشجرة قد تتعافى وتعود إلى الحياة، أما إذا اقتلعت من الجذور فلا مجال للحياة في هذه الشجرة.

بهذا المعنى فإنني أشبه الأغصان بالمقومات الأفقية وأشبه جذور الشجرة بالمقومات التي سميتها بالمقومات العمودية.

الأبعاد الأفقية يأتي الخطر عليها من الشتات والتشرذم ومن ذوبان هويات الجاليات الفلسطينية في جميع نواحي العالم.

أما الخطر على المقومات العمودية فيأتي من نسيان التاريخ، من نسيان التراث والرموز، من نسيان الثقافة والحضارة العربية – الإسلامية.

أطرح هنا فكرة بسيطة يجب أن يكون هناك برنامج مكوّن من شقين، يعالج الأغصان ويعالج الجذور، أي يعالج المستويين الأفقي والعمودي.

الشق الأول يتكون من مشروع لضبط أعداد وأسماء وأماكن تواجد الفلسطينيين في جميع أنحاء العالم. وهذا المشروع مهما ظهر كبيراً وواسعاً إلا أنه أمام تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات في الوقت الحاضر

ممكن. أنا لست خبير كمبيوتر ولكنني اعرف أنه ممكن وضع الشتات الفلسطيني في برنامج كمبيوتر ويمكن الربط بين جميع مجموعات الشعب الفلسطيني وحتى أفرادهم، ويمكن تنظيم ذلك انطلاقاً من جغرافية فلسطين التاريخية ومن البناء الاجتماعي للمجتمع الفلسطيني في أربعينات القرن الماضي. وهذا هو الجزء الأفقي.

أما الجزء الثاني، العمودي فيمكن استعمال البرنامج السابق لتزويد جميع الفلسطينيين في أماكن تواجدهم بمعلومات حول تاريخهم وثقافتهم وتراثهم والرموز المشتركة بينهم. في هذا العصر يمكن أن يكون هناك ما يسمى "مجتمع متخيل"، وليس بالضرورة أن يعيش أبناء الشعب الواحد على أرض واحدة.

مؤتمرنا اليوم يأتي في إطار التفتيش عن الجذور وعن التراث . وإذا عملنا الكثير من هذه الندوات والمؤتمرات واستعملنا أساليب الاتصال الحديثة يمكن أن نبني مجتمعاً فلسطينياً متخيلاً وموجوداً في ضمير وذهن كل فلسطيني أينما كان.

وشكراً لإصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله